المحاضرة الأولى:
الأصل المفاهيمي للبلاغة والفصاحة

إن الدارس لأي علم ينبغي عليه أولا أن يعرف طبيعته بصورة مجملة انطلاقا من تدقيق تعريف له أو تحديد وظيفته،وإذا تمكن من ذلك استطاع أن يلج أصوله ويطرق فصوله وفق رؤية فاحصة ،ونظرة ثاقبة،وهو ما يجلب له فهما عميقا

ونحن لن نحيد على ما قدمناه فسنقوم بإجمال عديد التعاريف التي ألبست بها البلاغة أولا ،ثم نحاول أن نسقط تلك التعاريف على عديد الملاحظات ذات الصلة بها حتى نتعرف على النمو الطبيعي لهذا العلم

أولا:تعريف البلاغة لغة:

البلاغة في اللغة تعني الوصول والانتهاء،يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا وصل وانتهى ومنه قول أبي قيس بن الأسلت السلمي:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا[1] مهلا فقد أبلغت أسماعي

ويقال رجل بليغ وبَلغ وبِلغ حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه[2]

إذا فكلمة البلاغة على إطلاقها تعني الانتهاء إلى أعلى درجات الشيء،حتى لا يكون بعده شيء أحسن ،سواء أكان هذا الانتهاء في أمور مادية أو أمور معنوية

وإذا قيدنا البلاغة بصفة العربية كنا قد حددنا المجال الذي سنتكلم فيه،إذ سنصب جام اهتمامنا على ما يتعلق بالكلام العربي،لنبحث فيه عن الطرق الكفيلة به حتى يصل إلى منتهاه ويؤدي معناه،.

ونحن سنقر بداية أن هذه الطرق عديدة ومتنوعة، وكل منها يشكل رافدا من روافدها،واجتماعها مجملة يمكن أن يشكل في الأخير أبلغ معانيها.

ثانيا:تعريف البلاغة اصطلاحا:

لقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين العديد من تعاريف البلاغة التي شكلت فيما بعد لبنات هذا الصرح ومنها :

1-تعريف عمرو بن عبيد(144هـ) بقوله "تخير اللفظ في حسن الإفهام"[3]

يشير هذا التعريف إلى أمرين: الأول اختيار اللفظ،والثاني الإفهام ،وهما أمران مترابطان ،بل ينبغي أن يخضع فيهما الأمر الأول للثاني.

وإذا أخذنا بميزان هذا التعريف كان علينا أن نصنف الكلام البليغ وفق مستويين:

المستوى الأول متعلق بالسامع ومدى فهمه لكلام المتكلم.

المستوى الثاني متعلق بالمتكلم ومدى اختياره الألفاظ التي تؤدي غايته في عملية الإفهام تلك.

ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي:

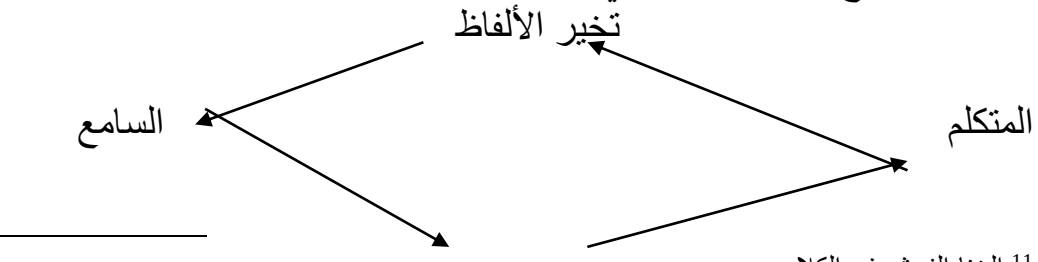

[11] الخنا:الفحش في الكلام

[2] ابن منظور، لسان العرب ،تح:عبد الله علي الكبير وآخرون،دار المعارف ،القاهرة،مصر،مادة "بلغ "ج1ص 346

[3] الجاحظ ، البيان والتبيين ،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط7(1418ه،1998م) ج 1ص114

الإفهام

وإذا تحقق هذان الشرطان كنا قد حكمنا عن الكلام وفق هذا التعريف بأنه كلام بليغ.

2- تعريف ابن المقفع حيث يقول:"البلاغة اسم لمعان تجري في أمور كثيرة،فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا ومنها ما يكون خطبا ومنها ما يكون رسائل،فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة"[4]

لو حاولنا أن نمحص هذا التعريف فإننا سنجد الآتي:

البلاغة في السكوت:وهنا يتبادر إلى الذهن أننا نتكلم عن بلاغة الكلام فكيف يمكن للسكوت أن يكون بلاغة؟

والإجابة على هذا الأمر بسيطة،فالمقصود بالسكوت ليس معناه أن يكون الإنسان صائما عن الكلام ونطلق عليه في الأخير أنه بليغ،بل المقصود بالسكوت أثناء عملية الكلام في لحظات معينة يفرضها سياق الكلام،ولهذا قالت العرب "السكوت عن الأحمق جوابه" كما أن "السكوت علامة الرضا".

أما بلاغة الاستماع فمعنى هذا أن يختار اللحظات التي يتطلبها الاستماع،فيفهم المعنى ويدرك المغزى ليتسنى له الرد ويتاح أمامه الجواب ولهذا قالت العرب "حسن الكلام من حسن الاستماع"

وأما أن تكون البلاغة في الاحتجاج،فهذا أمر ليس بالمتاح أمام الجميع إذ لا يقدر عليه إلا من أوتي من علم المناظرة وسوق الكلام باعا يمكنه من الرد والجواب في المقام الذي يتطلبه ذلك الأمر

وأما أن تكون البلاغة جوابا،فهذا يعني اختيار الجواب المناسب في اللحظة المناسبة، ومن هنا كان جواب الحكيم أحد فصول البلاغة العربية[5]

وأما أن تكون البلاغة شعرا أو خطبا أو رسائل،فهذه صنوف في الكلام اعتادت العرب أن يبلغ بها عن أغراضها،و لكل صنف منها مقام خاص يتطلبه .

وأما قول ابن المقفع:" فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة" فيشير إلى ميزان البلاغة عنده وهو أمران:

الأول هو الإشارة إلى المعنى .

والثاني الإيجاز بالقدر الذي يحتاجه ذلك المعنى.

وإذا تحقق هذان الأمران كان الإنسان وفق هذا التعريف بليغا.

ومن خلال تعريف ابن المقفع نستنتج أنه قد ركز على جانبين:الأول عقلي يتمظهر في السكوت والاستماع والإشارة، والآخر إجرائي مرتبط بالآداء الكلامي، يتمظهر في الاحتجاج والجواب والخطب والشعر.

وورد تعريف البلاغة في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية ما مفاده"البلاغة حسن البيان وقوة التأثير[6]

أما الرماني فيعرف البلاغة بقوله:إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ7

---

[4]الجاحظ ، البيان والتبيين ج1 ص115،116

[5]المقصود بجواب الحكيم.هو إجابة السائل بأكثر مما يسأل عنه لأن حاجته لا تتم إلا من خلال هذه الزيادة.

[6]شوقي ضيف وآخرون،المعجم الوسيط ،مكتبةالشروق الدولية،ط4(1425ه، 2004م) ، ص70

إن الرماني يضع لميزان البلاغة أمرين:الأول وصول المعنى إلى المخاطب(المتلقي) والثاني أن يختار له اللفظ الأنسب والأحسن.
ويعرفها الخطيب القزويني بقوله: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[8]
يحتوي كلام القزويني على ثلاث عتبات لغوية يجب الوقوف عندها وتحليلها،إذ يعد تعريفه هذا من أشمل التعريفات لعلم البلاغة،وهذه العتبات هي :الكلام،الحال،والفصاحة .
فالكلام يقتضي متكلما ومستمعا ،أو متكلما ومخاطبا أو بعبارة أخرى باثا ومتلقيا.
الحال وهو قسمان:إما لغوي؛ فمقام التنكيير ليس مقام التعريف مثلا.
أو مقامي؛ إذ مقام الحزن ليس كمقام الفرح.
أما الفصاحة فهي ترتبط بأمرين:
أولا بالمتكلم وبطريقة آدائه.
الثاني بالكلام وطريقة بنائه.
وقبل تفصيل هذه النقاط يجدر بنا وضع مخطط نجمع فيه أطراف العملية البلاغية،انطلاقا من هذا التعريف

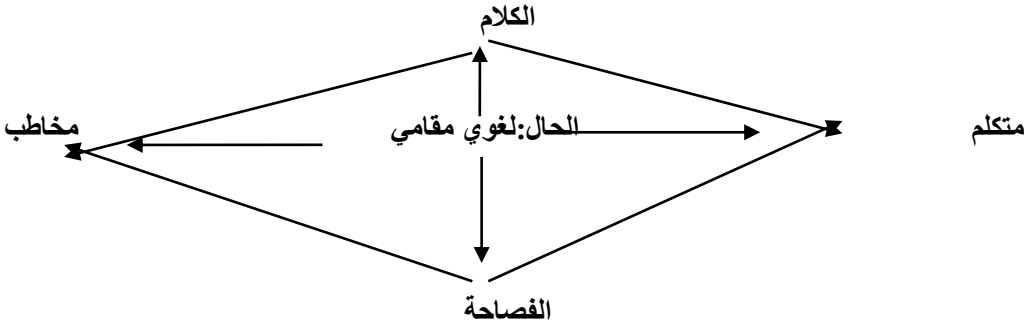

الفصاحة: خلو الشيء مما يشوبه ، يقال : أفصَح اللبن ، ذهب اللِبأ عنه -أي الرغوة التي تغطي سطحه- قال نضلة السُلمي :

رَأَوْهُ فَازْدَرَوهُ وهوَ خِرق[9] ويَنفعُ أَهْلَه الرجلُ القَبيحُ
فلم يَخْشُوا مَصَالتَهُ عَليهم وتَحتَ الرُّغوة اللَّبَن الفصيحُ

ويروى اللبن الصريحُ. **10**
وقد وردت لفظة الفصاحة في القرآن الكريم في قوله تعالى: ((وَأَخِي هارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي)) وفي الحديث النبوي ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش)) وبهذا المعنى قال عبد الله بن رواحة في مدح النبي (صلى الله عليه واله:
لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت فصاحته تنبيك بالخبر

---

[7] الرماني،النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص75،76
[8] القزويني :الخطيب ، الإيضاح ، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ط1(1424،2003) ص20
[9] الخريق هو الفتى الظريف
[10] ابن منظور، لسان العرب مادة : فصح.مج5ص3420

وفي قوله (صلى الله عليه واله) ((غُفر له بعدد كل فصيح وأعجم)) وفسر الفصيح ببني آدم والأعجم بالبهائم.
ولهذا فإن لفظة الفصاحة في القران الكريم والحديث النبوي الشريف لا تخرج عن المعنى اللغوي وهو الظهور والبيان والوضوح والصفاء
ويشترك مفهوم البلاغة مع الفصاحة في كونهما يحملان جميعا مفهوما واحدا وهو الإبانة عن المعنى.
وقد ذهب البلاغيون فيهما طرفين:
الأول يرى أنهما شيء واحد ويتزعم هذا الرأي عبد القاهر الجرجاني.
والثاني يرى أنهما مختلفان، ويترأس هذا الرأي أبو هلال العسكري حيث يرى أن الفصاحة تتعلق باللفظ، والبلاغة تتعلق بالمعنى، ولذلك فهي مرتبطة بآلة البيان، والدليل على ذلك أن الألثغ مثلا لا يسمى فصيحا ،كما أن الببغاء يقيم الحروف لكنه غير مدرك للمعنى؛ ولهذا يقال عنه أنه فصيح، وليس بليغا.ولهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحا.
وخلاصة القول في التفريق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة من صفات اللفظ ،والكلام، والمتكلم، فيقال: لفظة فصيحة، وكلام فصيح، ورجل فصيح.وأما البلاغة فيوصف بها الكلام والمتكلم فقط
والآن سنورد تفصيل هذا :
أ-فصاحة اللفظ :يعني خلوه من ثلاثة أشياء:
1-تنافر الحروف في الكلمات:ويعني أن تتألف الكلمة من حروف يعسر نطقها مجتمعة في لفظ واحد لثقلها على اللسان وذلك لتجاورها من حيث المكان الذي تصدر منه في الجهاز الصوتي.
و مثاله: لفظ – الهُعْخُع- فقد سئل أعرابي عن ناقته فقال: "تركتها ترعى الهُعْخُعَ"، وهو نوع من الشجر، فأنكرها الثقاة من أهل اللغة، حيث قال الخليل بن أحمد: "سمعنا كلمة شنعاء وهي -الهُعْخُع- فأنكرنا تأليفها، وسألنا الثقاة من علمائهم فأنكروا ذلك[11]. والسبب الذي أدى إلى نكرانها هو تركيبها من حروف حلقية، متقاربة جدا في الحلق، وهي الهاء والعين والخاء.
ومثاله أيضا لفظ - مستشزر - استشزر الحبلَ أي فتله إلى الأعلى، وقيل إلى الجهة اليسرى، وهو أقوى له. يقول امرؤ القيس بن حجر متغزلا بشعر محبوبته:

وفرعٍ يُغشّي المتن أسود فاحمٍ أثيــثٍ كقِنو النّخلة المتــعثكلِ
غَدائرُهُ مُستشزِراتٌ إلى العُلا تُضِلُّ المَدَارِى في مُثنًّى ومُرسَلِ[12]

فالتنافر في كلمة - مُستشزِراتٌ - ناجم عن تقارب السين والشين والتاء والزاي ، بالإضافة إلى اشتراك بعض حروفها في خاصية الرخاوة.
إن ذوائب شعرها مرتفعات، ولكثرته تغيب خصله وتختفي في المفتول منه والمرسل، أو تغيب المدارى في المفتول منه والمرسل. فأنت تجد في كلمة مستشزرات هنا تنافرًا يحسه السمع، وتكرهه الأذن، وقد نشأ الثقل من توسط الشين المهموسة الرخوة بين التاء المهموسة

11المزهرفي علوم الغة وأنواعها،السيوطي:جلال الدين،تح:محمد أحمد جاد المولى بك وآخرون،دار التراث،القاهرة،ط3.:ج: 1 ص : 193

12 انظر :ابن منظور، لسان العرب، مادة : شزر مج4 ص2255

الشديدة والزاي المجهورة،ولكننا في المقابل نجد أنها قد عبرت عن المعنى الذي يريده الشاعر أصدق تعبير، فهو يصف شعرها بكثرته وتداخله وتشابكه، ولذلك عمد إلى كلمة فيها هذا التداخل والتشابك، وهي مستشزرات التي تداخلت أصوات حروفها، وكاد صوت التاء والشين يختفي بين صوتي الراء والسين، فهي أكثر ملاءمة للمقام الذي وردت فيه من بديلتها مرتفعات مثلًا أو مستشرفات

ومن هنا فإن معرفة مخارج الحروف وصفاتها هو السبيل الوحيد لتبرير فصيح الكلمات من غيرها.

2-غرابة اللفظ: الغرابة وهي أن يكون اللفظ وحشيا؛أي لا يظهر معناه إلا بعد بحث في معاجم اللغة ،ومثاله قول العجاج:

وفَاحما ومَرسِنا مسَرَّجا وكَفلا وَعثا إذا ترجرجا

فالفاحم هنا الأسود،والمرسن الأنف الذي يشد بالرسن ثم استعير لأنف الإنسان، أما مسرجا فقد

اختلفوا في تخريجه فقيل: من سرجه تسريجا أي حسنه وبهجه،وقيل هو من قولهم للسيوف سريجية، نسبة إلى حداد اسمه سريج يجيد صناعة السيوف. فهو يريد تشبيه أنفها بالسيف السريجي في الدقة والاستواء ، وقيل إنه من السِّراج، أي أنه من البريق كالسراج[13].

ومعنى كلام الشاعر أن لهذه المرأة شعرا أسود فاحما،وأنفا كالسيف السريجي في دقته واستوائه،أو كالسراج في بريقه وضيائه

وقد ألحقت صفة الغرابة بهذه اللفظة لتعدد معانيها من جهة والاختلاف في تخريج المعنى المراد من جهة أخرى.

3-مخالفة القياس اللغوي وهو خروج اللفظة عن العرف العربي القويم، سواء أكان ذلك الخروج من الناحية الصرفية أم من الناحية النحوية وذلك بزيادة حرف أو إنقاصه أو إبداله ،وهذا الأمر عادة ما تفرضه الضرورات الشعرية كتعديل الوزن أو الحفاظ على القافية.

ومثاله قول الطرماح:

وأكره أن يعيب علي قومي هِجَايَ الأرذَلينَ ذَوِي الحنَات

فجَمَعَ - إحْنَة - على غير الجمع الصحيح، يقال: إحنة وإحَنٌ، ولا يقال: حِنَات والإحْنَة: الحقد والغضب.

وروي عن الأصمعي قولـه: "كنا نظن أن الطرماح شيء، حتى سمعنا قوله هذا البيت."[14]

ومثاله أيضا قول أبي النجم الفضل بن قدامة العجلي:

الحمد لله العلي الأجلل

الواهب الفضل الوهوب المجزل

أعطى فلم يبخل ولما يبخل

فإن القياس يقتضي إدغام المتماثلين، فيقول: الأجل، ولكنه فك الإدغام لضرورة الشعر مخالفًا بذلك ما تقرره القواعد الصرفية،

ومنه كذلك قول أبي الطيب المتنبي:

---

[13] القزويني:الخطيب،الإيضاح،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1(1424ه، 1424م)ص14

[14].الخفاجي:ابن سنان، سر الفصاحة - دار الكتب العلمية،لبنان ط1(1402ه، 1982م) ص : 82.

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة ففي الناس بُوقَات لها وطبول

فكلمة "بوقات" غير فصيحة لأن القياس يقتضي جمع بوق على أبواق جمع تكسير، ولم يرد جمعه على بوقات.

ومن صور المخالفة أيضًا حذف بعض الكلمة، كما في قول الشاعر:

فلست بآتيه ولا أستطيعه ولاك اسقني إن كان ماؤك ذا فضل

أراد: ولكن اسقني. فحذف النون.

ب- فصاحة الكلام إذا خلا من ثلاثة أشياء أيضا:

1-**تنافر الألفاظ في الكلام**:ومعناه أن يسبب اتصالها ثقلا على السمع وعسرا في النطق بها.

وقد قسم البلاغيون تنافر الكلمات قسمين :

-**تنافر ثقيل**، ومثاله البيت الذي أنشده الجاحظ:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

فقد زعموا أن هذا البيت من أشعار الجن، وأنه لا يمكن لأحد أن ينشده ثلاث مرات دون أن يتلعثم. ومنه أيضا قول الشاعر :

سلسلسل الريق لم لم يرو حر ظما بل بلبل القلب لما زاده ألم

-**تنافر خفيف**؛ومثاله قول أبي تمام يمدح موسى بن إبراهيم :

ومثاله أيضا:

لو كنت كنت كتمت السر كنت كما وكنت ولكن ذاك لم يكن كنا

2- **ضعف التأليف في الكلام**:وهو خروج الكلام عن قواعد اللغةومثاله عود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة، كقول حسان بن ثابت:

ولو أن مجدًا أخلد الدهرُ واحدًا من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مُطعما

فالضمير في مجده يعود على مطعم، وهو مفعول فمرتبته التأخير عن فاعله وبذلك عاد الضمير على متأخر لفظًا ورتبة، والقاعدة اللغوية تقول:لا يمكن للضمير أن يعود على متأخر لفظا ورتبة.

ومثاله أيضا:

جزى ربُه عني عديَ بن حاتم جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

فالضمير في ربه يعود على عدي، وهو مفعول، وذلك ممتنع عند الجمهور، فلا يصح أن يتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول به

3- التعقيد: ويكون ذلك لخلل في نظمه وتركيبه لعدم ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعاني؛ بسبب تقديم أو تأخير أو فصل بأجنبي بين موصوف وصفته أو بدل ومبدل منه أو مبتدأ وخبر،ومنه قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام المخزومي، خال هشام بن عبد الملك بن مروان، يقول :

وما مثله في الناس إلا مملكًا أبو أمه حي أبوه يقاربه

يريد أن يقول: وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكًا؛ يعني ملكًا، أبو أمه أبوه، فالمعنى الذي أراد الفرزدق أن يثبته للممدوح بسيط جدًّا، وهو أن هذا الممدوح لا يشبهه أحد على الإطلاق في فضائله إلا ابن أخته هشام بن عبد الملك، وهو بذلك يمدح الاثنين معًا، ولكن الفرزدق تعسف في القول حين أسرف في ارتكاب هذه الضرورات التي أدت بالتالي إلى خفاء المعنى المراد، وذلك لعدم ترتيب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في

النفس. ومع أن كلًّا من هذه المخالفات في نظم الكلام جائز باتفاق النحويين إلا أن اجتماعها على هذا النحو قد أورث الكلام تعقيدًا بحيث لا يفهم مغزاه من لا يعلم قصته، فقد فصل الشاعر بين المبتدأ "أبو أمه" والخبر" أبوه" بأجنبي عنهما وهو "حي" كما فصل بين الموصوف حي وصفته يقاربه بأجنبي، وهو" أبوه". كذلك فصل بين البدل "حي" والمبدل منه مثله بكلام كثير، وقدم المستثنى" مملكًا" على المستثنى منه "حي" فازداد البيت تعقيدًا حتى ضرب به المثل في تعسف اللفظ، كما يقول عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة ولا يكاد يخلو كتاب من كتب البلاغة من ذكر هذا البيت شاهدًا للتعقيد اللفظي، وأيًّا ما قيل في البيت، فالبيت غير فصيح لما فيه من التعقيد اللفظي .

ومن أمثلة هذا التعقيد اللفظي قول الفرزدق أيضًا:

إلى ملكٍ ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

أراد: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب، فقدم وأخر حتى جعل المعنى مبهمًا والنظم مختلًّا،

فصاحة المتكلم

يرى الخطيب القزويني أن فصاحة المتكلم "ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح"[15]. فالملكة أمر متعلق بالنفس ، يستطيع بها أن يعبر عن مقصوده بلفظ فصيح في أي معنى من المعاني، كالمدح والذم والفخر والرثاء والنسيب، وغيرها. وهذه الملكة موهبة تصقلها القراءة،والتدرب على التعبير عن الأفكار والمشاعر تعبيرًا جيدًا، يرتقي من مستوى الكلام العادي إلى الكلام الرفيع.

فوائد علم البلاغة

- أنها وسيلة إلى معرفة إعجاز القرآن الكريم،

-استجلاء ما في القرآن الكريم من معان وأحكام وأخبار وقضايا، فلا بد للناظر في القرآن من الإلمام بقواعد هذا العلم لمعرفة ما يدل عليه التكرار، وما ينطوي عليه الحذف، وما يفيده هذا التأويل، وغير ذلك مما يتصل بقواعد هذا العلم

-التدرب على التكلم بالبليغ من القول

- القدرة على حسن الاختيار

[15] القزويني، الإيضاح ص19